أدب الخطابة

فن التوصيل والتواصل

دراسة دلالية

من خلال وسطية القرآن الكريم

د. عبد الكريم علي المغاري

التدريسي في كلية الامام الاعظم/نينوى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فان من دواعي الفرح والسرور أن يبحث إنسان في موضوع يحبه، وتزداد هذه المحبة، وتشملها العناية والبركة من الله، إذا كان يصب في ميدان بناء المجتمع وكيف لا وهو يستمد من كتاب قال الله تعالى فيه (ومن أصدق من الله حديثا) وما فيه من توازن واعتدال وعدالة و خير وخلق ورفعة الذي حث على الآداب بصورة عامة ومن هذا الأدب الأدب العربي ألذي فتح آفاق الفنون وأحاطها بإطاره، كلوحة فنية تشكيلية يبرز بريقها بإطارها فضلا عن محتواها، هذا الأدب الذي صقله نور الإسلام، وخلق النبي العدنانفقد كان خلقه القرآن.

ومن هنا فقد أخذت زهرة من جنة الأدب في عجالة بحثي هذا لأتناولها بدراسة أدبية إسلامية، وتلكم الزهرة هي (الخطابة).

فتوكلت على الله تعالى وقسمت الدراسة على خمسة مباحث:

كان الأول في مفهوم الأدب وتطوره.

وجاء الثاني لبيان مفهوم الخطابة وتطورها.

وضم الثالث وظيفة الخطيب والشاعر.

وكان المبحث الرابع في التوصيل والتواصل.

وحوى المبحث الأخير زبدة المباحث وهو كيفية التوصيل والتواصل عن طريق الخطابة وأدبها ووسطية القرآن الكريم ثم كانت خاتمة البحث لبيان نتائجه.

* * *

المبحث الأول

التطور الدلالي لمفهوم الأدب

ورد (الأدب) في المصنفات قديما وحديثا، وجرى على الألسنة ذكره وتداوله، فكيف كان وأين أصبح جاء في لسان العرب أن أصل الأدب هو الدعاء (١)، والأصل هنا - على ما يظهر - يراد به مبدؤه فان الأصل ما يبدأ منه (٢)، إذن مبدأ معرفة (الأدب) كان الدعاء، يقول ابن فارس ((الهمزة والدال والباء أصل واحدتتفرع مسائله وترجع إليهفالأدب أن تجمع الناس إلى طعامك)) (٣) ويتفرع عن معنى الدعاءمعنى الدعوة إلى الطعام خاصةومنه استخدم (الأدب) مصدرا لأدب يأدب اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعى إليهومن ذلك أيضا المأدبة (٤) وقد بقي (الأدب)على المعنى الذي ذكرناه إلى قبيل الإسلامإذ استعمل (الأدب) بمعنى آخر وهو (التهذيب والرياضة) فقيل أدبه يادبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه بالتشديد على سبيل المبالغة بمعنى علمه وبمعنى عاقبه على إساءة. ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند، وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب بعلا على غير تسمية ((يؤدب أهله ولا يؤدبونه)) وقولها له جوابا عن ذلك ((إني لأخلاق هذا لوامقة واني له لموافقة واني لأخذته بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي)) (٥).

---

(١) لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ١/ ٧٠

(٢) ينظر: الفروق في اللغة: لابي هلال العسكري، ص١٥٧.

(٣) مقاييس اللغة: لابي الحسين احمد بن فارس، ص٥٠. وينظر النهاية في غريب الحديث والاثر: لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الاثير، ١/ ٣٠.

(٤) ينظر الادب ومذاهب النقد فيه: للدكتور رشيد العبيدي، ص٦.

(٥) م.ن: ص٧.

ولما أشرق نور الإسلام على الكون، كان لابد لهذا الإشراق أن يكون مهذبا، ومن هنا وجدنا أن لفظ الأدب استعمل عند المسلمين بالمعاني التي تليق بقدر الإسلام فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يصف القرآن بقوله: هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع منكم أن يتعلم منه شيئا فليفعل، فان اصفر البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وان البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وان الشيطان يخرج من البيت يسمع فيه سورة البقرة (١).

ونعلم جميعا أن خلقه صلى الله عليه وسلم كان القرآن حيث يقول " أدبني ربي فأحسن تأديبي " (٢)وبقي هذا المعنى للأدب ملاصقا للدلالة الإسلامية، إلى مرحلة نستطيع أن نقول عنها تخصصية، إذ كان ما اثر عن العرب - من شعر ونثر - قبل الإسلام وقبيله، الكثير منه يدعو إلى مكارم الأخلاق من كرم وشجاعة وغيرهما، ولما كان الإسلام يريد بالألفاظ أن تكون معانيها مهذبة - شعرا أو نثرا - وجدنا أن ما ثبت ليدل عليه الأدب، هو ما ظرف وحسن من الخلق والتناول في القول، وهو أيضا كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل(٣).

وقال أهل الأدب ((إن الأدب له غرضان: احدهما - يقال له الغرض الأدنى، والثاني - الغرض الأعلى.فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب والتمهر فيه، قوة يقدر بها على النظم والنثر. والغرض الأعلى - أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وصحابته،- ويعلم

---

(١) المعجم الكبير ، لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني: ٩ / ١٢٩ برقم (٨٦٤٢). قال الحافظ الهيثمي: أسانيده ورجاله رجال الصحاح. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٧ / ١٦٤.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي، وقال: حديث صحيح: ١/ ٥١.

(٣) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لاحمد بن محمد بن علي الفيومي، ١/ ١١.

كيـف تبنـى الألفاظ الواردة في القـرآن والحديث بعضها على بعضحتى تسـتنبط منها الأحـكام، وتفرع الفـروع ، وتنتج النتائج، وتقرن القرائن، على ما تقتضيه مباني كلام العربومجازاتهـا، كـما يفعل أصحاب الأصولوفي الأدب لمن حصـل في هذه المرتبة منه أعظـم معونـة على فهم علم الكلام، وكثـير من العلوم النظرية، فقـد زهد الناس في علـم الأدب، وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه، حتى ظن المتأدب أن أقصى غاياته أن يقول أبياتا من الشعر))(١).

وقـال ابـن خلدون: هـذا العلم لا موضوع لـه ينظر في إثبات عوارضـه أو نفيها، وإنـما المقصود منه عند أهل اللسـان ثمرته، وهو الإجـادة في فني المنظوم والمنثور على أسـاليب العرب ومناحيهم (٢)، وعكف الناس على دراسة هذا المعنى، حتى وضعت له كتب خاصة عرفت بكتب الأدبكما عرف غيرها بكتب الفقه وكتب التفسير وكتب علوم الآلة وهكذا.

* * *

---

(١) الاقتضاب في شرح ادب الكتاب: لابي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (ت٥٢١ هـ) ١٠/ ٤٩-٥٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ص٤٤٧.

المبحث الثاني

التطور الدلالي لمفهوم الخطابة

في البدء، مفهوم الخطابة المصطلح عليه، لا يعدو معناه اللغوي كثيرا، إذ أن المعنى اللغوي للخطابة مشتق من الجذر (خ، ط، ب) يقول ابن فارس: واصله الكلام بين اثنين، يقال: خاطبه يخاطبه خطابا، والخطبة من ذلك وهي الكلام المخطوب به (1).

فالخطبة – كما يشير ابن فارس – لغة تطلق على العملية الخطابية برمتها، فهناك شخص يتكلم بصوت مسموع وآخرون يسمعون الخطاب، وتطلق أيضاً على الكلام المسموع نفسه وهو ما يعرف بالمخطوب به.

والخطابة من حيث كونها موروثا عربيا، بدأت بهذه الكيفية التي بينتها معاجم اللغة وذلك بالنظر إلى المتكلم والسامع للكلام، إلا أن الظروف الزمانية والمكانية في عصر ما قبل الإسلام تختلف عما هو عليه بظهور شمس الإسلام.

فالخطابة في العصر الجاهلي لها شان عظيم وموقع مؤثر بين القبائل، فهم يستخدمونها في منافراتهم ومناظراتهم، وفي ميدان آخر تكون الخطبة أداة للنصح والإرشاد، وباعتبار آخر سلاحا للحث على القتال ومواجهة الاعداء، ومن جهة أخرى تعد آلة في الدعوة إلى السلم وحقن الدماء، وفي المناسبات الاجتماعية المختلفة كالزواجوالأصهار إلى الأشراف (2) وباعتبار الهيأة والمكان، فان الخطابة، تكثر في الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها، ومنها أيضا أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم، وكان من عادتهم لوت العمائم على رؤسهم،

---

(1) مقاييس اللغة: ص٣٨، وينظر: لسان العرب ٢/ ٨٥.

(2) ينظر: البيان والتبيين: لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١/ ١٠٩-١٩٠.

والإشارة في أثناء خطاباتهم بالعصي والمخاصر والقنا والقضبان والقسي [١]. فتبين مما سبق أن الخطابة قبل الإسلام كانت لها مناسبات ومواسم، وبالتالي فان الخطبة من حيث موضوعها تختلف من مناسبة إلى أخرى، وبعد بزوغ شمس الإسلام على الوجود أخذت الخطبة في الإسلام منحى آخر، إذ أصبحت الخطبة أداة من أدوات حفظ الشريعة، في كل مجالات الحياة، وكناحية فقهيةأخذت طرف الوجوب وكزمن شاعت في الجمعة والأعياد، وكمضمون شملت-كل نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجهادية والدعوية، فخطبة الجمعة لها هيئة خاصة ومكان خاص وهو المنبر واقترنت الخطبة باركان يجب أن تؤدى وتقال، وحضور ومستمعين حاضرين غير مسافرين بالغين وعاقلين قادرين وان يكون العدد الذي يسمع الخطبة عدداً حدته الشريعة، وغيرها من الأمور المكملة التي من شأنها أن تجعل الحدث كله يسمى خطبة الجمعة وذلك ما توضحه الأحاديث الخاصة بيوم الجمعة وخطبته [٢] وإذا أخذنا مقارنة بين الأسلوب الجاهلي وأسلوب الخطبة الإسلامية نجد أن العرب الجاهليين كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم احتفالا شديدالا من حيث الصقل وتجديد الألفاظ فحسب، بل أيضا من حيث الكلم، ولعلهم من اجل ذلك كانوا يتزيدون في جهارة الأصوات كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاه[٣].

ولعل من الطريف أننا نجدهم يصفون خطابتهم بأنها كالوشي المنمق، ففيها تدبيج وتزيين يشبه ما يجدونه في الثياب اليمانية الموشاة، يقول أبو قردودة الطائي في رثاء ابن

---

(١) م.ن: ٣/ ٧، وينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي: للدكتور شوقي ضيف، ص٢٧.

(٢) لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين. أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب تغليظ من ترك الجمعة برقم (٨٦٥) .

(٣) يتظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٣٣.

عمار خطيب طئ وقد مات مقتولا (١):

ياجفنة كازاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرة

اما في الاسلام، فها هو الجاحظ يصف لنا الاسلوب والوجهة لهذا النثر بقوله: ((بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام في زمن اكثر ما كانت العرب فيه شاعرا وخطيبا، واحكم ما كانت لغة واشد ما كانت عدة فدعا اقصاها وادناها الى توحيد الله وتصديق رسالته (٢) ومعنى ذلك ان اسلوب الخطبة صار غاية لتوصيل الافكار الإسلامية سواء كانت هذه الافكار اقرارا لما كان قبل الاسلام ام لا، فمنه ان تتضمن الخطبة بالقرآن والحديث والحكم والامثال وغيرها، لتؤدي الخطبة وظيفتها الدينية، وتستمر الخطابة عبر العصور محافظة على اركانها اللغوية، غير انها اخذت الوانا متباينة من عصر الى آخر، فهناك الخطب السياسية والخطب الاجتماعية والخطب الدينية، ولهذا نجد ان تعريف الخطبة في الاصطلاح يدور حول الاركان الاساسية لمعاني اللغة يقول الكفوي: الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الافهام (٣) او هي فن مشافهة الجمهور واقناعه واستمالته، او هي فن مخاطبة الجماهير بطريقة القائية تشتمل على الاقناع والاستمالة (٤).

* * *

---

(١) انظر البيت في البيان والتبيين، ١/ ٣٤٩.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، ١/ ١٨٩.

(٣) ينظر: الكليات، لابي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، ص٤١٩.

(٤) ينظر: الخطابة: للدكتور محي هلال السرحان، وآخرين، ص١٠.

المبحث الثالث

الخطيب والشاعر

لا يخفى أن الأدب بشقيه كان ميدان الرجال فالشعر كان له اهله، والنثر كان كذلك، واخص هنا بالذكر – احد عناصر النثر وهو الخطابة – .

يقول قدامة بن جعفر: وليس يخلو المنثور من ان يكون خطابة، او ترسلا، او احتجاجا او حديثا ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه (١)، ومكانة الشعر عند العرب كانت كبيرة قبل الاسلام، والخطابة لم تكن باقل مكانة ومركزا وهناك دلائل مختلفة تدل على ان منزلة الخطيب في الجاهلية كانت فوق منزلة الشاعر، ويقول ابو عمرو بن العلاء: (كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم ماثرهم، ويفخم شانهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر) (٢) .

ويقول الجاحظ: (كان الشاعر ارفع قدرا من الخطيب وهي اليه احوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بايامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب اعظم قدرا من الشاعر (٣) وعلى اية حال فان مكانة الشاعر لم تستقر عند العرب والقبائل، ويمكن ان يقال ان هناك عوامل ميزت الخطابة والخطيب، منها ان الخطابة كانت من لوازم سادة

---

(١) نقد النثر: لابي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، ص٩٣.

(٢) ينظر: الفن ومذاهبه، ص٢٨.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٢٤١.

القبائل فهم يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل، ومن اجل ذلك كانت تقترن بها الحكمة والشرف والرياسة (١).

وبناءا على قول الجاحظ نلحظ ان ميدان الشعر او وظيفة الشاعر قد لا تكون لسان قبيلته فقط او معبرا عن صورة مشرقة لقومه ومآثرهم، اذ هناك انواع كثيرة من الشعر، فمنها مايعبر عن الوجه الحسن للقبيلة، ومنها مايؤذي سمعتها وواجهتها، فان الشعر مثلا اذا كان للتكسب او التغزل او الهجاء الممقوت فان ذلك مدعاة للاساءة لقبيلته، لذلك فان هذه الخصلة بين الشعراء قد حطت من منزلتهم امام منزلة الخطيب الذي يعد حقيقة لسان قومه، ويقول الدكتور شوقي ضيف: والحق ان خطباء العصر الجاهلي نهضوا بخطابتهم نهضة واسعة، ولذلك لم يكن غريبا ان يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم، الى بعضهم وهو يخطب، فيقول: ((ان من البيان لسحرا))، ولم يكن هذا البيان الساحر شيئا خاصا بهذا الخطيب، بل كان شيئا عاما بين الخطباء، اذ ذهبوا جميعا مذهب التجويد والتحبير، حتى يستميلوا الاسماع ويخلبوا الالباب [٢] واذا كانت الخطبة قد رفعت مكانة جليلة عند الاقوام والقبائل، فان هذه المكانة ازدادت اهمية في الاسلام، في حين انحسر ميدان الشاعر والشعر الا في اغراض ارادها الاسلام، واقوى دليل على مانقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اخطب العرب قاطبة [٣] ولم يكن شاعرهم .

❊ ❊ ❊

---

(١) م.ن: ١/ ١٢٤.

(٢) الفن ومذاهبه: ص٣٧-٣٨.

(٣) ينظر: السيرة الحلبية: لعلي بن برهان الدين الحلبي، ١/ ٣٧٩. وغيره من كتب السيرة.

المبحث الرابع

فن التوصيل والتواصل

ظهر لنا فيما سبق معانى الادب ومنه فن الخطابه، وتجدر الاشارة هنا الى ناحيتن **الاولى**: مدى صلة الخطابة بالادب باعتبار نسبة الادب اليها - أي في قولنا (ادب الخطابة) -، وما هى فائدة هذه النسبه، ويمكن ان يقال ان ما اشتملت عليه لفظة (الادب) من تطور دلالي، ينبغي ان تضفي هذه المعاني السامية على انواع الادب ولا سيما (الخطاب الاسلامي) ولذلك فهما متلازمان، فالخطابة تلازم الادب والادب من فروعه الخطابة، وقد اجتمعت هذه الدلالات وتظافرت من اجل شئ واحد وهو ايصال معلومات الخطيب بشكل يدل عليه مصطلح ادب الخطابة.

الثانية: قيدت العنوان بـ(فن التوصيل والتواصل)، ولعلها تضيف تقوية لمعنى الخطابة وعلاقتها بالادب عندما نصفها بمصطلح الفن، اذ الفن عند اصحاب المعاجم، يطلق على ضرب من الضروب في الاشياء كلها (١) والفن من الشئ النوع منه، والفنن الغصن، والجمع افنان (٢).

فحينما يتخرج الطالب في الكلية ويبدا بتطبيق تلك العلوم التي درسها يكون قد لمس الناحية العملية، فعمله هذا فن، وهكذا حين تدرس النحو والبلاغة والنقد الادبي كنظريات وقواعد يمكننا اان نسمي كلا منها علما، حتى اذا حاول انشاء قصيدة أو تحبير خطبة أو كتابة رسالة او مقالة او قصة

---

(١) المقاييس، ص٧٩١.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ٢/ ٦٦٠.

في أي موضـوع، كان عمله هـذا فنـا(١) واذ ا كنـا نتحـدث عـن دور الخطابة في توصيل الافكار، واستمالة السامعين، فحري بنا البحث عن امثلة لهذا التواصل، وتعالـوا بنـا لنقف عند القرآن الكريم، اذ ان جميع مقومات نجاح الخطبة بشـكل خـاص، نجدهـا فيه، ولقد اثر هـذا الكتاب العظيم في اللغة العربية بشـكل عام، فقـد حول ادبهـا من قصائـد في الغزل والحماسـة والاخـذ بالثـار والفخر، وغير ذلـك، الى ادب عالمي يخوض في مشـاكل الحيـاة والجماعة وينظم امورهـا الدينية والدنيويـة، فارتقـى الأدب العربي رقيـا لم يكن يحلم به العـرب (٢) ولذلك صار اعظـم وسـيلة لدى نقـاد الادب واقوى حجة عنـد الفصحـاء والبلغاء واصدق دليـل في ميـزان النقد فهو كتاب عربي مبين (٣) وهذا هو جانب التواصل من جهة القـرآن الكريـم، ويقابل ذلك دور الخطابة التـي كان لها موقف بارز من القرآن، اذ ان الخطـب النبويـة الشريفـة كان لهـا الاثـر الكبـير في تفسـير القـرآن الكريم في العهـد الذهبـي، والعهـود التاليـة لـه، فالمفسرون قـد اكثروا من الاستشـهاد بالخطـب النبويـة في كثـير مـن المواضـع التـي يظنهـا مناسـبة للاستشـهاد(٤).

وبهـذا تجلـت العلاقـة المتبادلـة بـين الادب والقـرآن الكريـم اذ هنـاك توصيـل للمعلومـات، ولذلـك فعـلى الخطيب ان يحذو حـذو القرآن في ادبه هـذا –الخطابة – ويكـون عونا آخر لايصال افكار أخرى، ومن اجـل التواصل، تلزمنا قوة التوصيل،

---

(١) ينظر: الادب ومذاهب النقد فيه، ص١٦.

(٢) ينظر: الفن ومذاهبه، ص٤٦.

(٣) الادب ومذاهبه، ص١٠٨.

(٤) ينظر: اثر خطب الرسول صلى الله عليه وسلم في كتب تفسير القران الكريم: د.صديق خليل صالـح. بحث منشـور في مجلـة كلية الامام الاعظم العـدد الخاص بمؤتمرها الثاني سـنة ٢٠٠٧ م. ص٧١-٧٢.

وهذه منشؤها من مفردات الخطبة وجملها وتراكيبها و ((لان ثقة الناس تتفاوت بتفاوت منزلة المتكلمين، فاذا كان المتكلم شخصا عاديا او ذا منزلة بسيطة بين الناس، فانه يضطر لكسب ثقة السامعين بقوله الى ان يؤيده بكلام تشتد ثقة الناس به [1] وتزداد هذه الثقة حينما يتصف الخطيب بما ذكر البغدادي بـ ((ان يكون الخطيب او المترسل عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له، فلا يستعمل الايجاز في موضع الاطالة، والايستعمل الاطالة في موضع الايجاز، والايستعمل الفاظ الخاصة في مخاطبة العامة ولاكلام الملوك مع السوقة، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بوزنهم، وليس يكون الخطيب موصوفا بالبلاغة الابوضع هذه الاشياء موضعها))[2].

ولما كانت الخطبة محاطة بالادب ومرتكزة على اعلى درجات القدرة التعبيرية، وهي اللغة العربية بفنونها الادبية، والتي هي بدورها تستمد هذا العطاء من القرآن الكريم، كان ضروريا ان تكون لهذه السمة التعبيرية من اهداف وغايات.

ان اهم غايات الخطبة المبنية على المبادئ الاسلامية هي الوصول الى عملية التواصل بين جمهور السامعين وما يقوله الخطيب، هذه الغاية التي لانجدها عيانا ولا نلمسها حسا، فهي اشارة النص، يلقيها الخطيب على مسامع الحاضرين، هذه الغاية التي جعلت من الخطيب لسان قومه يوما ما، وهي التي تبقي الخطيب حياً إذا ما التحق بربه. وذلك لايتم الا اذا كانت مفردات الخطبة متسمة بالوسطية القرآنية فالخطبة لاتعدو وسيكون المبحث الاتي ميدان هذه المسألة.

---

(١) خصائص الخطبة والخطيب: نذير محمد مكتبي، ص٩٨.

(٢) ينظر: نقد النثر، ص٩٦-٩٧.

المبحث الخامس

التطور الوظيفي للخطابة الإسلامية من خلال وسطية القرآن الكريم

ويتضمن ما يأتي:

1. **ترسيخ الفكر والعقيدة .**
2. **رسم منهج صحيح للعبادة .**
3. **تثبيت ركن الإحسان في القلوب.**

إن أول قضية في وسطية القران الكريم تتجلى في التوحيد وصحة الاعتقاد فهي مسؤولية الخطيب في إيصال هذا الركن العظيم بشكل واضح دون إفراط ولا تفريط خاصة وان مسائلها غير قابلة للاجتهاد _كما لا يخفى_ ها هو القران يتحدث لنا عن عقيدة الأنبياء جميعا ((وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)) سورة النحل: الآية: (٣٦)، ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)) سورة الأنبياء: الآية (٢٥)وقد خالف كثير من الامم رسلهم فغيروا وحرفوا،

ومن أعظم الأمم اختلافا وضلالا، وبعدا عن عقيدة رسلهم بل محاربة لهم وأكثر من ذلك اباحة قتلهم انهم امتا اليهود والنصارى[1] وكلتا الامتين قد تجاوزتا الحدود من خلال الغلو والتطرف من خلال الافراط والتفريط لذلك جاء القران ليقول لامة التوحيد ها هي سورة التوحيد المستقيم:((اهدِنَــا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ)) ولماذا المستقيم

---

(١) الوسطية في القران ص ٢٠١ ، د.علي محمد الصلابي

لأن الاستقامة هي المنهج الوسط بين الضالين والمغضوب عليهم، ((يقول ابن القيم:الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود في كل شي))[1].

ومن هنا فالمسلمون اتبعوا الرسل فهدوا لأقوم الطرق فكان قولهم هدى بين ضلالتين وحقا بين باطلين.[2]

((صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)).

ومعنى هذا ان كل من نقصت عدالته أوتضاءلت خيريته مهما كانت نسبته أو قوميته أو مذهبه فهو بعيد عن منهج الوسطية في القران الكريم، إذ عدم الاعتدال لا ينحصر في شخص أو فئة بل هو طريق المغضوب عليهم فهو معنى في الدين وليس محسوسا ولا مادة ولذلك فهي نسبية فالعدل قد يكون في اي شخص سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن ملتزماً أو غير ملتزم- كما يعرف بالمفهوم المعاصر.

ومما يلزم الخطيب إيصاله هو كيفية العبادة التي خلق الله الأنام من أجلها ((وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون)) وقد طرح القران هذه المسألة بشكلٍ معتدل من حيث التكليف ومن حيث التطبيق فعلى سبيل المثال لا الحصر لفظة ((الوسطى)) من قوله تعالى((حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ للهِّ قَانِتِينَ)) سورة البقرة: الآية (٢٣٨) .

بعد الوقوف على اختلاف المفسرين أي الصلوات هي الوسطى في هذه الآية تجدر الاشارة الى وثاقة الصلة المعنوية واللفظية بين هاتين الايتين نلحظ ان كلمة ((وسطا)) من قوله تعالى ((وكذلك جعلناكم امة وسطا)). تعني عدولا خيارا فلكلتا اللفظتين مشتق من مادة واحدة وهي (و س ط) يقول ابن فارس(الواو والسين والطاء) بناء

---

[1] (١) ينظر مدارك للسالكين لابن قين الجوزية ٢/ ١٠٤

[2] (٢) ص ٢٠١

صحيح يدل على العدل والنصف واعدل الشي اوسطه ووسطه(١).

((وقد أشار المفسرون إلى المعنى الدقيق للوسطى: بأنها إرشاد للمحافظة على أداء الصلوات أداء متوسطا لا طويلا مملا ولا قصيرا مخلا)) (٢).

وقد لخص ابن الجوزي رحمه الله (٣) آراء المفسرين في الصلاة الوسطى في ثلاثة اقوال:

احدها: انها أوسط الصلوات محلا .

والثاني: أوسطها مقدارا.

والثالث: أفضلها .

وقد بين القران المنهج في العبادة منهج بعيد عن عبادة الكافرين المغالين منهم والمفرطين فقال ((قُلْ أَفَغَيْرَ اللهَّ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)) سورة الزمر: الآية (٦٤) وقال تعالى ((قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهّ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُّ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)) سورة المائدة: الآية (٧٦).

وقال تعالى: ((أَلا للهَّ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهَّ زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَّ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)) سورة الزمر: الآية (٣).

وقال تعالى: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)) سورة الحج: الآية (١١). ومما ذمّ الله به العابدين: قوله تعالى: ((ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ١٠٨ ينظر لسان العرب (٧/ ٤٢٧).

(٢) تفسير القاسمي (٣/ ٦٢٢ -٣٢٦) وينظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور وينظر الطبري (٢/ ٥٦٧).

(٣) ينظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٨-٣٠.

وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهَّ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)) سورة الحديد (٢٧).

فمن ابتدع شيئا من رهبنة النصارى او عزلة اليهود فليس ذلك الا بعدا عن التوازن والاعتدال ولا شك في ان ذلك يعد اتباعا للشهوات يقول الله تعالى ((فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)) سورة مريم: الآية (٥٩). وعلى هذا توجه الأمة وأبناؤها حتى تكون خير أمة ، ومما ينبغي للخطيب التأكيد عليه هو:

ركن الإحسان وهي ان تعبد الله كأنك تراه فأن لم تكن تراه فانه يراكو كيفية تمثلها من غير افراط ولا تفريط، قال الله تعالى في سورة القلم الآية: (٢٨) ((قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)) أي أعدلهم قولا وكان أسرع القوم فزعا وأحسنهم رجعة[1]. وهذا تابع لمفهوم الأخلاق إذ هي القوى والسجايا النفسية الراسخةالتي تصدر عنها أنماط السلوك الإنساني الخارجي، من خلال إرادة حرة وهي تمثل الصورة الباطنية للانسانكما ان الخلق يمثل الصورة الظاهرة، وكلاهما يكون حسنا او قبيحا، والأصل في الخلق ان يكون اختياريا يكسب بالتخليق والجهد والمثابرة على التزام جانب التساميولذلك يمدح به الانسان او يذم، ويثاب عليه أو يعاقب، بخلاف الخلق فهو فطرة مقسومة محدودة لا مدخل لاحد فيها ولا اختيار، ولا يتعلق بها لذاتها مدح او ذم، ولا يترتب عليها ثواب او عقاب (٢).

وقد وجه القرآن الى تقويم الخلقمن خلال آيات كثيرة منها:

لتعليم المشي: ((واقصد في مشيك)) لقمان ١٩ وقال تعالى: ((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٩/ ٣٤.

(٢) المنهاج القراني في التشريع ص ٤٠٨.

يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)) سورة الفرقان: الآية (٦٣) وقـال تعـالى: ((وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحـاً إِنَّكَ لَـن تَخْـرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)) سورة الإسراء: الآية (٣٧)،

وفي آداب التـزاور قـال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَـداً فَلَا تَدْخُلُوهَـا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيـلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُـوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)) سورة النور: الآية (٢٧ - ٢٨)،

وفي آداب الجلـوس قـال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّـحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِيـنَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِـمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)) سـورة المجادلة: الآية (١١)، ومنها: قوله تعالى: ((يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَـكَ إِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِـبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِـكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)) سورة لقمان: الآية (١٧ - ١٩) .

ومنهـا برّ الوالدين: والعلاقـة بين الزوجين: قال تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُـمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَـاء كَرْهـاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَـا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَـةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَـى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)) سورة النساء (١٩).

قال تعالى: ((وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً)) سورة الإسراء: الآية (٣١) .

وفي صلة الأرحام قال الله تعالى: ((إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) سورة النحل: الآية (٩٠) قال تعالى: ((وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً)) سورة الإسراء: الآية (٢٦)

ويلم شتات ما ذكرناه من مفردات الخطيب المتواصل قول سيد قطب رحمه الله حين وقف على تفسير قوله تعالى ((وجعلناكم امة وسطا))٠((وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحق والفضل، او من الوسط بمعنى الاعتدال والقصداو الوسط بمعناه المادي والحسيامة وسطآ في التصور والاعتقاد امة وسطا في التفكير والشعورامة وسطا في التنظيم والتنسيقامة وسطا في الارتباطات والعلاقاتامة وسطا في الزمانامة وسطآ في المكان)).[1] .

* * *

---

(١) في ظل القرآن ١/ ١٣١

الخاتمة

تبين من خلال البحث ما يلي:

١ - ان اغلب الالفاظ التي استعملها العرب قبل الاسلام، ثم تناولها الإسلام في امر من الامور، قد طرأ عليه تطور دلالي، ومن هذه الالفاظ (الادب) و (الخطابة).

٢ - ان منزلة أي علم تقاس بوظيفتها، لذلك ارتفعت منزلة الخطابة نسبة الى الشعر.

٣ - ان اهم غاية لادب الخطابة هو التوصيل لافكار الخطيب.

٤ - الاهم من التوصيل هو بقاء هذه الافكار والمعلومات جيلا بعد جيل.

٥ - أن وسطية القرآن أسوة حسنة لكل خطيب

٦ - بقاء افكار الخطيب في ذهن المتلقين مرهون بتوازن الفاظه واعتدال خيريته

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المصادر والمراجع

١ - اثر خطب النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن الكريم، للدكتور صديق خليل صالح، بحث منشور في مجلة كلية الامام الاعظم، العدد الخاص بمؤتمرها الثاني، سنة ٢٠٠٧م .

٢ - الادب ومذاهب النقد فيه، د رشيد العبيدي (ط١، مطبعة التفيض، بغداد، ١٩٥٥م).

٣ - الاقتضاب في شرح ادب الكتاب، لابي محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، تح، الاستاذ مصطفى السقا ود حامد عبدالحميد (ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م).

٤ - البداية والنهاية ، لابن كثير، دار الفكر العربي

٥ - البيان والتبيين، لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح عبدالسلام هارون (ط٣، مؤسسة الخانجي، القاهرة، د، ت).

٦ - التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، دار الكتب تونس.

٧ - تفسير القاسمي ، جمال الدين القاسمي ط٢ ، بيروت ١٩٧٨

٨ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ، دار الفكر بيروت ١٤٠٧ هـ.

٩ - الجامع الصغير في احاديث البشير النذير، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م).

١٠ - خصائص الخطبة والخطيب، لنذير محمد مكتبي، (ط٤ دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٥م).

١١ - الخطابة للدكتور محي هلال السرحان وآخرين، (مطبعة التعليم العالي، الموصل، ١٤١٠هـ).

١٢ - السيرة الحلبية، لعلي بن برهان الدين الحلبي (دار المعرفة بيروت، ١٩٨٠م).

١٣ - صحيح مسلم، لبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تح محمد فؤاد عبدالباقي (دار الفكر بيروت، ١٣٩٦هـ).

١٤ - الفروق في اللغة، لابي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (بيروت، ١٩٨٣م، د، ط)

١٥ - الفن ومذاهبه في النثر العربي، د شوقي ضيف (ط٦، دالرالمعارف، مصر، د، ت) .

١٦ - في ظلال القرآن السيد قطب ط بيروت

١٧ - الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) لابي البقاء ايوب بن موسى الكفوي، تح عدنان درويش، ومحمد المصري (ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م).

١٨ - لسان العرب، لابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور،(دار صادر، بيروت، دت).

١٩ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلي بن ابي بكر الهيتمي (ت ٨٠٧ه) (دار الريان، القاهرة١٤٠٧ ه).

٢٠ - مدارك السالكين ،بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ،لابن قيم الجوزية دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٢ هـ

٢١ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لاحمد بن محمد بن علي الفيومي (دارالقلم، بيروت، دت).

٢٢ - المعجم الكبير، لسليمان بن احمد بن ايوب ابو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) (ط ٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م).

٢٣ - مقاييس اللغة، لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ط١ دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م،).

٢٤ - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ط٢، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م).

٢٥ - نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (بيروت، لبنان، ١٩٨٢م).

٢٦ - النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) تح محمود الطناحي وظاهر احمد الزاوي (مطبعة أنصار السنة المحمدية، باكستان، د، ت).

٢٧ - الوسطية في القرآن الكريم ، د: محمد علي الصلابي ، دار المعرفة بيروت ط١ ٢٠٠٥م

* * *